قراءة في أحد معالم التصوف الإسلامي
"الحسين بن منصور الحلاج" في إحدى شطحاته

***

أ. بن عيسى خيرة*

مقدمة**

ونحن نقرأ عن التصوف الإسلامي، توقفنا من حين إلى آخر بعض الشخصيات الصوفية الكبرى التي كان لها الأثر الأكبر في تمثيله، إن لم نقل في صياغته وتكوينه بشكل ميّزه عن أي خطاب، وقد كان "الحلاج"[1] أصدق تعبير عن ذلك.

إذ أن تنوع الدراسات والقراءات حول شخصيته وطبيعة صوفيته، أعطى لهذه الأخيرة طابعًا خاصًا وأثار الكثير من الغموض والتأويل، تراوح في صورته العامة بين الإدانة والتبرير، أي بين من جعل الحلاج في مرتبة الأولياء الصالحين، وبين من اعتبره زنديقًا ملحدا ادعى الإلوهية.

وهناك قراءات أخرى حصرت الحلاج بكل صوفيته وأقواله وأشعاره في لحظة موته عندما صلب، فراحت تصوّر ذلك على شكل رواية تراجيدية تخلو من البعد الروحي التأويلي لصوفيته، فكان ولا يزال في تصور الكثيرين شهيدًا أو مصلوبًا. فإذا كان هذا المتصوف بعد كل ما قاله وما شطح به، يحصر في تلك اللحظات الأخيرة من حياته، فإن ذلك من دون شكٍ سيفرغ صوفيته من كل معنى.

وهو الأمر الذي دفعني إلى محاولة فهم الموت عنده، وأنا هنا لا أقصد الموت المادي، أين جُلد "الحلاج" وصلب وقُطع رأسه... والقصة معروفة، بل إن توجهي هو الموت المعنوي الذي كان "الحلاج" يتكلم عنه في أشعاره وفي حالات سكره ووجده.

لقد كانت مواقفه وأقواله دليلاً على عمق صوفيته، أو على الأقل دليلاً على أنه كان عاشقًا يرجو الوصال، هذا إذا قرأت الديوان متذوقا فقط، فإنك ستدرك أنه يحب الله -في أبسط المعاني-، أما أنك إذا قرأت أشعاره وأقواله بعمق فإنك ستقف حائرا بين الغموض والسهولة حينًا، وبين الرمزية وبلاغة العبارة حينًا آخر، ناهيك عمَّا ورد في كتابي الطواسين والتفسير والأقوال.

أما أنك إذا قرأت ما كُتِب عن "الحلاج" في تأريخٍ لسيرته وتأويل لصوفيته، وفهمٍ لأفكاره وأقواله، فإنك لن تسلم من الحيرة بين موقف وأخر، وبين موافق ومعارض، إضافة إلى أنك ستجد نفسك

---

* - أستاذة بقسم العلوم الإنسانية، جامعة تلمسان.

** - Abstract: Cet article tente de présenter une nouvelle lecture dans les textes symboliques de “Hallaj Ibn Mansour“ qui reste toujours un sujet d’étude et de recherche. On ne pourra jamais recenser tous ces aspects, parce que ses intentions sont pleines d’amour, de passion, d’extase et du savoir, ainsi que du concept de la mort. D’ailleurs c’est la question de “ la mort” qu’on va développer, on va s’interroger sur la définition du concept de la mort selon “Alhallaj“, comment le considérer comme le plus important de ses concepts? et comment ce concept a devenir une expérience gustative par excellence.

[1] - هو الحسين بن منصور الحلاج: (244- 309 هـ) - (858- 922م).

أمام زخم من المفاهيم الكبرى في التصوف، كالحلول والاتحاد والتأليه والإلحاد والزندقة والشطح والحب والسكر والفناء...

قد يتساءل البعض، لماذا الموت عند "الحلاج"؟ لأن طبيعة هذه التجربة ستختلف عن كونها حادثة مرعبة وغامضة، وستكسر كل الأصنام التي كانت راسخة في الأذهان، وستصبح حاملة لمعاني جديدة مختلفة سنكتشفها مع هذا المتصوف.

كما قد يتساءل آخر، لماذا الموت كإحدى شطحاته؟ ونحن نعرف أن الشطح هو ما فاض به لسان العاشق في لحظة من الوجد والسكر، فلم يستطع الكتمان فأعلن وكشف الأسرار، والموت ليس قولاً، بل هو تجربة أو ممارسة.

إن موت "الحلاج" -كما سبق وذكرت- ليس يوم صلب، بل هو رجاؤه، فكان يتمناه وكلما اشتدَّ به الشوق، يطلبه، بل يرجو الله أن يخلصه من الحياة، وكان يصيح في الأسواق وبين الناس وعلى الملإ وهو سكران ينادي بأن يقتلوه، ويصلي عند القبور ويعتكف في المساجد راجيًا الله أن يخلصه من عذاب الشوق فيطلب الموت، يقينًا وإدراكًا منه أن الموت على الخشبة ما هو في الحقيقة إلا جزء من تحقيق البقاء في رحاب الحضرة الإلهية،وهو لا يساوي شيئاً مقابل ما عرفه، وما أدركه في لحظة وجده واتصاله بالله، إنَّه بقاء في رحاب الحضرة الإلهية، وفناء عن نفسه وغيره إلا الله، فيفقد إرادته وتتحقق عنده إرادة الله فلا يشعر بنفسه ولا يعرف حينها إلا الله.

سنؤكد هذه الأفكار السابقة، من خلال استقراء بعض ما قاله "الحلاج"، وتجدر الإشارة إلى أنه لا يوجد نص صريح له يعرفنا فيه بالموت، سواء في الديوان أو في كتاب الطواسين[1]، أو التفسير والروايات التي رويت عنه في أخبار "الحلاج".

لكنه سيتكلم عنه في مواضع عديدة، وذلك بالرمز إليه، ومن خلال توظيف مرادفات أو معاني، فمثلاً، يستعمل "الحلاج" كلمة (تلفت) فيقول:

يَا مَنْ به كَلِفَتْ نَفْسِي فَقَدْ تَلِفَتْ وُجْدًا فَصِرْتُ رَهِينًا تَحْتَ أَهْوَائِـي[2].

ويقول كذلك: **فَهَا أَنا فِي حَبْسِ الحَيَـاةِ مُمَنَّعٌ مِنَ الأُنسِ فاقْبِضْنِي إليكَ مِنَ الحَبْسِ**[3].

وكلمة [اقْبِضْنِي]، هنا أيضًا، تدل على الموت أو بالأحرى رغبة "الحلاج" في الموت، وستكون لنا وقفة عند هذه المعاني لاحقًا، وعند أبيات أخرى، وأقوال كثيرة سنتطرق إليها، على أنه يجب أن ننبه القارئ في هذا المقام إلى أن أقوال "الحلاج" بما فيها البيتين السابقين قد فُهمت وشُرحت وأُوِّلت

[1]- عنوانه الكامل: "طاسين الأزل والالتباس في صحة الدعاوي بعكس المعاني"، كتبه الحلاج وهو في السجن، ويمثل كتابه المرحلة المتأخرة من فكره.

[2]-الحلاج، الأعمال الكاملة، (التفسير، الطواسين، بستان المعرفة، نصوص الولاية، المرويات، الديوان)، تبويب وتحقيق: قاسم محمد عباس، بيروت لبنان، 2002، الطبعة الأولى، ص289.

[3] - المصدر نفسه، ص310.

بأشكال متعددة، ولاشك أن هذا هو السر الذي جعله أسطورة في العشق، وشخصية فريدة في تاريخ التصوف، وفي تحطيم حواجز اللغة وضيق العبارة، ولك هذا القول الجميل الواضح الغامض وأنظر ماذا ترى فيه[1].

بَيْنِي وَبَيْنَكَ إِنِيٌّ يُنَازِعُـنِي ❖❖❖ فَارْفَعْ بِإِنِيكَ إِنِّـي مِنَ البَـيْنِ

وإضافة إلى هذا لا يمكن أن ننسى مواقفه وصيحاته في حالة شوقه إلى المطلق، لذلك، سنحاول من خلال بحثنا هذا أن نفهم الموت عند هذا المتصوف، وأن نكشف عما تخفيه أقواله وصيحاته من رغبة في الحياة والبقاء لا الموت، كما أننا سنلمس بكل تأكيد الطبيعة الزئبقية للموت التي تتحدد من خلال حالات "الحلاج "، هذا الأخير الذي كلما اعتقدنا أننا فهمنا الموت عنده، إلاّ ويصيح من جديد، ويضعنا أمام تصوّرٍ آخر يختلف عنه ظاهرا، لكنه يتفق وينسجم معه باطنًا.

وعلى هذا الأساس سنتناول المحاور التالية

أولاً: ماذا يقصد بكلمة "الشّطح"؟ وماذا يراد بشطحات الصوفية؟

ثانياً: لمحة موجزة عن بعض شطحات الصوفية ودرجاتها، وشطحات "الحلاج" خاصة.

ثالثًا: تعريف الموت عند الصوفية.

رابعًا: الموت عند "الحلاج "كإحدى شطحاته.

لن يختلف علماء اللغة كثيرا عن المتصوفة في معنى كلمة "الشَّطْح"، لذاك سنورد بعض التعريفات التي ستوصلنا في النهاية إلى معنى واحد.

في كتاب" اللّمع" يقدم "السراج الطوسي" عبارات جميلة يشبه من خلالها حالة المريد وشطحاته فيقول: "ألا ترى أن الماء الكثير إذا جرى في نهر ضيق فيفيض من حافتيه، يقال شطح الماء في النهر، فكذلك المريد الواجد إذا قوى وجده ولم يطق حمل ما يرد على قلبه من سطوة أنوار، شطح ذلك على لسانه فيترجم عنها بعبارة مستغربة مشكلة على فُهُوم سامعيها إلا من كان من أهلها فسمي ذلك على لسان أهل الاصطلاح شطحا"[2].

فالشّطح هو اللفظ أو العبارة التي تنبع من المريد في اللحظة التي تغيب فيها الذات العاشقة عن الخلق وتدخل في رحاب الحق، وحينها وبعد تدرج المريد في مراتب الوُجد يزول الستار بينه وبين الله، وينكشف المحجوب ويتحد العاشق بالمعشوق، فينطق المريد بعدما عجز عن الكتمان فيذيع ويعلن، "عِبارَةٌ مُسْتَغْرِبَةٌ في وُجْدٍ فَاضَ بِقُوَتِهِ، وهَاجَ بشدَّةِ غَلَبَاتِهِ وَغَلَبَتِهِ"[3].

---

[1] - المصدر السابق، ص 325.

[2] - ابن نصر السراج الطوسي، حققه وقدم له: عبد الحليم محمود، طه عبد الباقي سرور، مصر، دار الكتب الحديثة، 1960، بدون طبعة، ص453-454.

[3] - المرجع نفسه، ص453.

وهذه العبارة القوية تكون حاملة لمعاني متعددة، فقد تمسّ بالحقيقة الإلهية، كما أنها تشير إلى الاتحاد والحلول، أو الأكثر من ذلك، قد يكون فيها علوا على مكانة الأنبياء أو ادعاءً للإلوهية، لذلك جاءت هذه العبارات غريبة مثيرة للتعجب والاستفهام، وحتى الرفض القاطع والاتهام وعدم القبول بجوازات القول والتبرير، فهو كما يعرفه "الجرجاني "--أي الشطح- في كتابه التعريفات: "عِبارةٌ عن كلمةٍ عليها رائحة رُعُونةٍ ودعوىً وهو من زَلاّتِ المحقّقين، فَإنّه دعوى بحقٍّ يُفْصِحُ بها العارف من غير إذنٍ إلهيّ بطريق يُشْعِرُ بالنباهَةِ"[1].

فالشّطح هو فناء في ذات الله، كقول "الحلاج": "أنا الحق"، وقول أبو يزيد البسطامي: "سبحاني ما أعظم شأني"، وغير هذه الأقوال والعبارات كثيرة في تاريخ التصوف[2]، فللعار "وقت يطرأ عليه الفناء والاستغراق حتى يخرج بذلك عن دائرة حسه وشهوده ويخرج عن جميع مداركه ووجوده، لكن تارة يكون ذلك في ذات الحق سبحانه وتعلى، فيتدلى له من قدس اللاهوت من بعض أسراره فيضًا يقضي منه أن يشهد ذاته عين ذات الحق لمحقه فيها واستهلاكه فيها"[3].

وقد تكون عبارات الشّطح تعبيرا "يوهم أو يقتضي أن لهم -أي العارفين- شغوفا وعلوا على مراتب النبيين والمرسلين[4]. كقول "أبي يزيد البسطامي "خُضْنَا بَحْرًا وَقَفَتِ الأَ َنْبِيَاءُ بِسَاحِلِهِ "[5].

ولا يمكن أن ننسى في هذا المقام شطحات الصوفية التي كان فيها فهم جديد وتغيّير لبعض الحقائق والفرائض الدينية، ففي الحج[6]، يقول "الحلاج"[7]:

لِلنَاسِ حَجٌّ وَلِي حَجٌّ فِي سُكْنَى ❖❖❖ تُهْدَى الأَضَاحِي وأَهْدِي مَهْجَتِي وَدَمِي

تَطُوفُ بالبَيْتِ قَومٌ لاَ بِجَارِحَة ❖❖❖ باللّه طَافُوا فَأَغْنَاهُمْ عَنِ الحَرَمِ

فالشّطح بهذه المعاني السالفة الذكر، هو تعبير عن كشفٍ للمستور، وإدعاءٍ لما هو محظور، وغياب من أجل تحقيق الحضور في ذات الحق، وهو ليس بالقول السهل اليسير،

فليس كل متصوف قد شطح، وليس كل مريد محب لله شطح.

---

[1] - الجرجاني علي بن محمد، كتاب التعريفات، تعريفات مصطلحات (علوم قرآن – فقه- لغة – فلسفة – تصوف – مكاييل – موازيين – مقاييس) رتب على الحروف ألفبائيا، تحقيق وزيادة: محمد عبد الرحمان المرعشلي، دار النفائس، بيروت، الطبعة الأولى، 2003، ص 202.

[2] - وقول الحلاج كذلك: أنا من أهوى ومن أهوى أنا، و"ما في الجبة إلا الله"، وقول التسترى: أنظر أنا شيء عجيب لمن يراني ** أنا المحب والحبيب ما ثم ثان.

[3] - أيمن حمدي، قاموس المصطلحات الصوفية – دراسة تراثية مع شرح اصطلاحات أهل الصفاء من كلام خاتم الأولياء، القاهرة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، طبعة 2000، ص70-71.

[4]- مثل قول الشيخ عبد القادر الجيلي: معاشر الأنبياء أوتيتم اللقب وأوتينا ما لم تأتوه.

[5] -أيمن حمدي، قاموس المصطلحات الصوفية، مذكور سابقا، ص69-70.

[6] - يقال أنه وجد كتاب للحلاج يقول فيه: أن الإنسان يمكن أن يحج في بيته وذلك، بأن يهيأ غرفة في بيته ويطوف فيها، ويكون ذلك كمن حج البيت.

[7] - الحلاج، الأعمال الكاملة، مذكور سابقا، ص 322.

و"الحلاج" لم يستطع الكتمان فشّطح، وأول ما يُورَد في هذا المجال من قبل الدارسين له والمستشرقين أقواله التي ادعى فيها الألوهية كقوله: "أنا الحق"، أو "ما في الجبة إلا الله" أو تلك العبارات التي تشير إلى الحلول كقوله[1]:

مُزِجَتْ رُوحُكِ فِي رُوحي كَمَا ❖❖❖ تُمزَجُ الخمرَةُ بالمَاءِ الـزُلاَلْ

فإذا مَسَّكَ شَيْءٌ مَسَّني ❖❖❖ فإذا أنْتَ أنَا فِي كُلِّ حَالْ

وقد صنفت هذه العبارات من أكبر شطحات الصوفية، ورغم أنه عندما كان يخرج من حالة سكره، كان ينفي ما تشير إليه هذه الأقوال من إدعاء للحلول والاتحاد...[2].

وهناك عبارات أخرى كثيرة استغرب سامعوها، واختلفت عن المألوف، وأثارت تعجب البعض، وحفيظة البعض الأخر، كما كانت محلّ إعجاب ومحلّ استنكار أيضًا، وهي أقواله التي كان يطلب فيها الموت، فكانت هذه الأخيرة من بين شطحاته، لأنه كان ينطق بها وهو غائب عن وعيه، وكان حينها قد أحسّ بحضور ذات الحق في ذاته، فجاءت عباراته حاملة لأبعاد روحية عميقة، معبرة عن توقه للخلاص من ألم الفراق وشدة العشق، وأن ذلك الوصال الذي كان يعيشه في لحظات وجده وسكره، لم يكفه فكان يطلب الموت فـَ "من أسكرته أنوار التوحيد حجبته عن عبارة التجريد، بل من أسكرته أنوار التجريد نطق عن حقائق التوحيد، لأن السكران هو الذي ينطق بكل مكتوم".

فكيف يفهم "الحلاج" الموت؟ عن ماذا ستكشف لنا تجربة "الحلاج" في الموت؟ هل يمكن أن نعتبر طريقته في التعبير عن الموت شطحا؟ وأين يحصل الموت عنده؟ ربما كان ذلك على الخشبة!؟

قبل محاولة الإجابة عن هذه الأسئلة، سنعرج على مفهوم الموت عند الصوفية، لكي تتضح لنا نوعًا ما معالم التجربة الحلاجية في الموت، لأننا سنكتشف أنه سيتجاوزهم، ليس في أنه مارس الموت على الخشبة، بل لأن الموت في فهمهم لم يكفه. فباح وأذاع وشطح.

في اللغة، "الموت من الفعل مات يموت موتا، بمعنى توفى وانقضى أجله وهلك، وأصل معناه انعدام القوة النامية في الحيوان والنبات، ويعم فيكون زوال القوة الحسية وزوال القوة العاقلة وهو الجهالة والحزن والخوف المكدر للحياة"[3].

[1] - المصدر السابق، ص 319.

[2] - يقول الحلاج في التوحيد: "إن الله تبارك وتعالى له الحمد ذات واحد، قائم بنفسه، منفرد عن غيره بقدمه، متوحد عمن سواه بربوبيته، لا يمازجه شيء، ولا يخالطه غير، ولا يحويه مكان، ولا يدركه زمان، ولا تقدره فكرة، ولا تصوره خطرة، ولا تدركه نظرة، ولا تعتريه فترة. الأعمال الكاملة، الأقوال، نصوص الولاية، ص. 226. ويقول أيضا في المصدر نفسه، ص 226، نفيا للحلول: "من ظن أن الإلهية تمتزج بالبشرية، أو البشرية تمتزج بالإلهية، فقد كفر، فإن الله تفرد بذاته وصفاته عن ذوات الخلق وصفاتهم، فلا يشبههم بوجه من الوجوه، ولا يشبهونه بشيء من الأشياء".

[3]- الشيخ أحمد رضا، معجم متن اللغة العربية، موسوعة لغوية حديثة، مجلد5، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1960، بدون طبعة، ص 363.

ويقول "ابن منظور" في كتابه "لسان العرب": "يقال مات فلان وتوفى وأودى وهلك وقاسى الموت الأحمر، والموت الصهابي وهو الموت قتلا، والموت الأغبر وهو الموت جوعا، والموت الأسود وهو الموت خنقا أو غرقا والموت الأبيض وهو موت الفجأة".

وإلى جانب هذا التعريف اللغوي كان الموت حاضرا في كل المجالات العلمية[1]، والفلسفية والدينية وغيرها، وإنه لمن الصعب أن نجمع كل هذه التعريفات دون الوقوف عند كل خطاب، إلا أن ما يمكن قوله والتأكيد عليه أو بالأحرى ما أتفق عليه في تعريف الموت، هو أنه نهاية أو ضد الحياة[2]، أو الوجه الآخر للحياة، أو الانتقال من الحركة إلى السكون.

لكن مع الصوفية المسلمين خاصة سيحمل الموت مضامين جديدة تعبر عن الانتماء الروحي والإيمان والزهد في الحياة، بحثا عن حياة أفضل، وتجسد ذلك في "قمع هوى النفس فأن حياتها به، ولا تميل إلى لذاتها وشهواتها ومقتضيات الطبيعة البدنية إلا به"[3]، فكان المتصوف يؤمن بأن الموت الطبيعي هو موت حاصل، ولا يقارن بنشوة ذلك الموت الذي يعيشه الإنسان عندما يجاهد نفسه بالعبادات والمجاهدات ليصل إلى مقام الأولياء والشهداء، "فمن مات عن هواه فقد حي بهدايته عن الضلالة وبمعرفته عن الجهالة"[4].

وقد شبّه الصوفية هذا الموت بالسفر الذي يحقق من خلاله المريد لقاءً جزئيا مع الله، وهو يخفف من عذاب الشوق، أين ينقطع عن الأمور الدنيوية وتنكشف له الحقائق الإلهية، وتسمى هذه المرتبة بمرتبة الفناء، وفي هذا الصدد، يقول الغزالي: "إنّ العارف الكامل في حال فنائه قد مات موتا في حق الدنيا وفي حق كل ما يفارقه بالموت"[5].

والموت عند الصوفية هو موت إرادي وموت طبيعي، أمّا الأول، فهو مجاهدة النفس ودفعها إلى التخلص من الشهوات والابتعاد عن الدنيا والزهد فيها، وهو يعتمد على إرادة الإنسان، وقدرته على التخلص من الأهواء ومطالب النفس، ويمكن أن نعرض للموتات الأربع عند الصوفية، وهي الموت الأبيض، والموت الأخضر، والأحمر والأسود، "فالموت الأبيض بمعنى الجوع والموت الأخضر بمعنى لبس المرقعات، والموت الأحمر بمعنى مخالفة النفس، والموت الأسود بمعنى تحمل الأذى"[6].

---

[1] - إن التفسير العلمي البيولوجي للموت هو: التوقف النهائي والكامل لكل الوظائف الحيوية في الجسم، وتهدم الوحدات النسيجية والخلايا، ويمكن تحديد ذلك عبر الخطوات الثلاث التالية، بدون تفاعل وبدون تفكير، وانعدام التنفس وتوقف الوظائف الدماغية، والعصبية.

[2] - الحياة في اللغة نقيض الموت، وهي النمو والبقاء والمنفعة، والحي من كل شيء نقيض الميت، والحي أيضا، كل متكلم ناطق، ويعرفها علماء الحياة بأنها مجموع ما يشاهد في الحيوانات والنباتات من مميزات، تفرق بينها وبين الجمادات مثل التغذية والنمو والتناسل.

[3]- رفيق العجم، موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي، ناشرون مكتبة لبنان، الطبعة الأولى، 1999، ص952

[4] - المرجع السابق، ص 952

[5] - إبراهيم محمد تركي، فلسفة الموت عند الصوفية، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، طبعة جديدة، 1992، ص 137.

[6] -ربما يكون لأبن عربي فضل السبق في إطلاق اسم الموتات الأربع على الصور الأربعة الخاصة بصور المجاهدة الروحية، ويلاحظ أن هذه المصطلحات لم ترد في مؤلفات الصوفية السابقة.

ولابن عربي تعريفين للموت، التعريف الأول: "الموت هو السكون"، إلا أن هذا التعريف يبدو أكثر عمومية، لأنه ينطبق على الأشياء الجامدة الأخرى غير القابلة للموت، ويرجح أن ذلك أطلق فقط على سبيل التشبيه، أما التعريف الثاني "الموت هو زوال الحياة "[1]، ويمكن أن نعتبر أن زوال الحياة التعريف الأكثر قبولا، لأنه يصدق على الكائن الحي، وزوال الحياة فيه يعني الموت، لكن هذين التعريفين السابقين عامين على كل أنواع الموت التي تحدث عنها ابن عربي، فقد قدم أنواعا متعددة للموت، وذلك انطلاقا من أن الحياة تحمل أوجها مختلفة وهي ضد للموت، فإنه وطبقا لذلك، يجعل للموت أوجهًا متعددة، فهناك موت الصورة الجسدية، وموت القلب، والموت عن الحق، والموت عن الخلق، وستكون لنا وقفة موجزة عند كل هذا الأنواع.

أوّل هذه الأنواع هو ما اصطلح عليه ابن عربي الموت الأصلي، الذي لا تسبقه حياة، ونجد إشارة إلى هذا النوع من الموت في القرآن الكريم، في قوله تعالى في سورة البقرة الآية الثامنة والعشرون: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾، وهو "ينطبق على الإنسان قبل حدوثه أو وجوده وذلك عند سريان الحياة فيه باتصال الروح بالبدن ولذلك يكون الإنسان عند ابن عربي ميتا قبل نفخ الروح فيه"[2].

فالإنسان قبل أن تنفخ فيه الروح، يكون ميتًا موتًا سابقًا على كل حياة، وذلك في مقابل الموت العارض الذي يكون مسبوقا بحياة، وفيه يقول تعالى في الآية السابقة الذكر نفسها: ﴿فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾.

وتجدر الإشارة هنا، إلى أن التعريفات السابقة التي قدمناها حول الموت لا تنطبق على الموت الأصلي بقدر انطباقها على الأنواع الأخرى، منها موت الصورة الجسدية، وهو الموت العارض والطارئ، الذي يصيب كل الكائنات الحية، ويحدث ذلك بانفصال الروح عن الجسد. يقول ابن عربي: "مفارقة الروح لاجتماع أجسامها في الحياة الدنيا"[3].

وعلى خلاف موت الصورة الجسدية أي الطبيعية، يقدم ابن عربي نوعًا آخر، وهو الموت عن الحق، أو هو "موت القلب"[4].

ويعتبر هذا الأخير مصدرا للعقل، أو ما يسمى بالنفس الناطقة، "لذلك فإن الموت الذي يقع على هذا الجانب من الإنسان يسمى جهلا، لأن العلم هو حياة القلب، لذلك فإن زوال الحياة عن القلب الذي هو الموت بالنسبة له لا يعني إلا زوال العلم منه، وهذا هو الجهل"[1].

---

[1]- ابن عربي، الفتوحات المكية، الجزء الخامس، ص464. نقلاً: إبراهيم محمد تركي، فلسفة الموت عند الصوفية، مذكور سابقا، ص 160.

[2]- ابن عربي، الفتوحات المكية، الجزء الثامن، ص 112. نقلاً: إبراهيم محمد تركي، فلسفة الموت عند الصوفية، مذكور سابقا، ص 162.

[3]-المصدر السابق، الجزء الحادي عشر، ص201. نقلا عن إبراهيم محمد تركي، ص 166.

[4]- وهو تعبير عما يقال: بأن الموت عند الصوفية هو الحجاب على أنوار المكاشفات والتجلي، والقلب هو موضع المكاشفات الإلهية وتلك التجليات الربانية، فإذا مات القلب بالجهل، أي لم يعد صالحا لخلوه من العلم بالله الذي هو حياته الحقيقية، فإن ذلك لا يعني سوى أنه محجوب عن هذه الأنوار الإلهية.

فالإنسان قد يكون حيًّا في صورته الجسدية الظاهرة، لكن معنويًا هو ميت القلب وخاليا من المعرفة بالله، وغافل عن الله، لذلك وجب تطهيره من الشهوات والشبهات، ما يعني أن هذا الموت عن الحق لا يلحق بالإنسان في كليته، بل فقط يصيب جزء فقط لا البدن، ولا النفس، ولا الروح، لأن هذه الأخيرة حسب ابن عربي "حية بذاتها لا يلحقها الموت"[2]، بل يصيب القلب، ورابع أنواع الموت التي تكلم عنها ابن عربي، هي الموت عن الخلق أو الموت عن الأكوان، هو الذي يكون فيه الإنسان منقطعًا عن كل شيء غير الله، وقد يتضمن الموت الأصلي وموت الصورة الجسدية إذ فيها ينقطع الإنسان عن كل المخلوقات والأكوان، كما يقابل الموت عن الخلق الموت عن الحق الذي تكلمنا عنه سابقا[3].

ولقد تمّ اختيارنا لأبن عربي، وعرض تعريفاته، لأنه استطاع أن يجمع كل أنواع الموت التي سيتكلم عنها الصوفية، وأن اختيارنا له لم يكن على سبيل الحصر، بل على سبيل الاختيار، ذلك لأن مسألة الموت هي خاصة جدا عند الصوفية، وقد أفاضوا فيها كثيرا.

فالموت عند الصوفية لم يرتبط بمعنى الخوف، والفزع، والهروب، والقدر المحتوم، وإنما عبر عن خلاص، وعن حياة خفية أسمى وأرقى، يجب أن يسعى لها المريد لكي يحقق الاتصال الإرادي بالمحبوب، ويترفع عن جميع شهوات النفس ورغباتها.

و"الحلاج"باعتباره متصوفا، لن يختلف عن هذا المعنى السابق، فكان يفني في حبّه للحق، ويجاهد نفسه بالعبادة، وينقطع عن الدنيا، ويتصل فقط بالله، فتنكشف له الحقائق الإلهية انكشافا، بحيث يشاهدها بعين بصيرته، ويتوقف إحساسه بالعالم فيدخل في رحاب الحق، ويموت بذلك عن الخلق. لذلك لا يمكن أن نفهم الموت عنده دون أن نعرف معنى الحب ودرجته، أو بالأحرى طبيعة هذا الحب التي دفعته إلى طلب الموت.

فالحب هو الذي أعطاه شعورا في لحظات سكره وفنائه بأنه والحق واحد، فهو يقول[4]:

أنَا مَنْ أهْوَى ومَنْ أهْوَى أنَا — نَحْنُ رُوحَانِ حَلَلْنَا بَـدَنَا
نَحْنُ مُذْ كُنَا على عَهْدِ الهَوَى — يُضْرَبُ الأمْثَـالُ للنّاسِ بِنَا
فـإذا أبـصَرتـَنِي أبْصَـرتَهُ — وإذا أبـْصَرْتَهُ أبـصَرْتَنَـا
رُوحُه رُوحِي وَرُوحِـي رُوحُهُ — مَنْ رأَى رُوحَيْنِ حَلَّتْ بَـدَنَا

---

[1]- إبراهيم محمد تركي، فلسفة الموت عند الصوفية، مرجع مذكور سابقا، ص177.
[2]- المرجع نفسه، ص177.
[3] - يتكلم ابن عربي عن هذه الأنواع الأربع في الفتوحات المكية خاصة الجزء الرابع والخامس والسابع، أنظر: إبراهيم تركي، فلسفة الموت عند الصوفية، مذكور سابقا.
[4]- الحلاج، ديوان الحلاج ومعه أخبار الحلاج، وكتاب الطواسين، وضع حواشيه وعلق عليه: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الثانية، 2002، ص 158-159.

فالحبّ هو المنبع الأول الذي يفضي إلى تحقيق التواصل، وهذا الأخير هو نفي لكل نهاية، لأنه نابع من مصدر غير محدود لا بداية ولانهاية له، فالحب إذا هو نفي للموت الذي هو تعبير عن النهاية.
وإذا كان يعتقد العامة والخاصة من الناس أن الموت هو كذلك - أي أنه نهاية -، فإن "الحلاج" يعتبره تتويجاً لذلك الحب الذي سكن قلبه، فهو يعبر عن هذا المعنى الأخير بطريقة بليغة جدا، فيقول: "إذا استولى الحق على قلب أخلاه من غيره، وإذا لازم أحدا أفناه عمن سواه"[1].

فالموت عنده هو سير نحو الحقيقة، وهو تحقيق لما يجب أن يكون عليه الإنسان حقا، لأن الحلاج كان يريد قتل ذلك الصراع القائم في داخله، والذي كان يربطه دائما بالوجود المادي الحسي - أي الوجود الإنساني -سعياً إلى تحقيق الوجود الحقيقي، أين تنعدم الفجوة بينه وبين الله، "فهناك إيحاء دائم بأننا لو خلصنا من ذاتنا العينية، فقد يكون في هذا بداية لرحلتنا، بل قد يؤدي بنا إلى أن نجد الطريق إلى ذاتنا بالحقيقة وإلى ما نحن حقيقة"[2].
الموت إذا هو موت في الله، وهو سعي ورضا، يقول[3]:

إنّي لَرَاضٍ بما يُرْضِيكَ مِنْ تَلَفِي يَا قَاتِلِي ولما تَخْتَارُ أخْتَارُ

فلم يعتبر "الحلاج" يومًا، الموت على أنه مخيف أو مؤلم، ففي الروايات يقال أنه عندما أخرج ليصلب، قال بعد أن صلى ركعتين وذكر الله قال: "...أن ترزقني شكر هذه النعمة التي أنعمت بها عليّ، حيث غيبت أغياري عما كشفت لي من مطالع وجهك، وحرمت على غيري ما أبحت لي من النظر في مكنونات سرك، وهؤلاء عبادك قد اجتمعوا [لقتلي] تعصبا لدينك، وتقربا إليك فاغفر لهم، فإنك لو كشفت لهم ما كشفت لي لما فعلوا ما فعلوا، ولو سترت عني ما سترت عنهم لما ابتليت بما ابتليت، فلك الحمد فيما تفعل ولك الحمد فيما تريد"[4].

هي إذاً، شجاعة كبيرة في قبول الموت، أو بتعبير أصح هي تعبير عن الرضا التام والشكر، لأنه قد كشفت له الأنوار والأسرار، وأن الموت صلبا لا يساوي شيئا، مقابل نشوة الموت عشقا.
وإذا كان "الحلاج" في رجائه هذا يطلب الله لمن عزموا على قتله، فإنه كذلك يشفق عليهم لان الحجاب لم يكشف لهم، فهم إذا موتى لا حياة لهم.

أما الحياة التي يعتقدون أنه هم يَحْيونها فهي بالنسبة له سجنا، لأنها تبعده عن الحياة الحقيقية التي هي بقاء في الله وليس بقاء في الأرض، لذلك كان "الحلاج" ينشد قائلاً[5]:

---

[1]- علي بن أنجب الساعي البغدادي، أخبار الحلاج (من أندر الأصول المخطوطة في سير الحلاج)، حقق أصوله وعلق عليه: موفق فوزي الجبر، سوريا، دار الطليعة الجديدة، الطبعة الثانية، 1997، ص 78 -79.
[2]- ج- ب- كارس، الموت والوجود، دراسة لتصورات الفناء الإنساني في التراث الديني والفلسفي والعالمي، ترجمة: بدر الديب، المجلس الأعلى للثقافة، بدون طبعة، 1998، ص 92.
[3]- الحلاج، ديوان الحلاج ومعه أخبار الحلاج وكتاب الطواسين، مصدر مذكور سابقا، ص 178.
[4]- علي بن أنجب الساعي البغدادي، أخبار الحلاج (من أندر الأصول المخطوطة في سير الحلاج)، مذكور سابقا، ص 64.
[5] - المصدر السابق، ص 80.

أقَلِّبُ قَــلبِي فِــي سِــوَاكَ فَــلاَ أرَى سِوَى وَحشَتِي مِنْهُ وأنْتَ بِهِ أُنسِي
فَهَا أنَا فِي حَبْسِ الحيَاةِ مُمْنَعٌ عن الأُنْسِ فَاقبضنِي إلــيْكَ مِــنَ الحَــبْسِ

إن الحياة التي يقصدها في قوله الأخير هذا، هي تلك التي تعبر عن الارتباط بالوجود الإنساني الذي يبعده عن معشوقه أو كما يعتقد يحبسه، فكان عزاءه الوحيد هو الرجاء والإكثار من العبادات والمجاهدات حتى يشعر داخليا بأنه حرّ عندما يغيب عن نفسه وعن العالم ويستشعر المطلق.

كما يجب أن ننبّه إلى نقطة مهمة وهي، أن أقوال "الحلاج" اشتملت على الرمزية والعمق، ما ولد صعوبة في فهمه، فهو عندما يتكلم عن الحياة لا يقصد المعنى نفسه في كل أقواله، فإذا كان في البيت السابق يقصد الحياة الحسية التي يعيشها هو وغيره من الناس، فإنه فيما سأذكر لاحقا سيتكلم عن الحياة بمعنى مغاير تماما، إذ كان يطلب الموت الذي فيه حياته، فيقول في أبياته الشهيرة:[1]

أقْتُــلُونِي يَا ثُقَاتِي إنَ فِي قَتْلِي حَيَــاتِي
ومَمَـاتِي فِي حَيَـاتِي وحَيَاتِي فِي مَمَــاتِي

وهو هنا لا يساوي بين الموت والحياة، أو أن حياته كموته، لأن هذا الفهم الأخير سيتنافى مع الرغبات الروحية التي كان يسعى إليها "الحلاج"، فهو يقصد أن الموت هو حياة في الله، وسيحقق ذاته أو كما يجب أن تكون عليه حقا، وذلك في سبيل حبه لله الذي - أي الحب - هو عتبة على الموت، يقول[2]:

واللهِ لَوْ حَلَـفَ العُشَّاقُ أنَــهُــمْ مَوْتَى مِنَ الحُبِ أوْ قَتْلَى مَا حَنَثُوا
قَوْمٌ إذا هُجِرُوا مِنْ بَعْدِ مَا وُصِلُوا مَاتُوا وإنْ عَادَ وصْلٌ بَعْدَه بُعِثُوا

و"الحلاج" لم يجد مخرجا ينجيه إلا الموت، لأن الحب قد تملكه، فلم يستطع الصبر، وأن البقاء على حال العشق غير ممكن، فهو يقول في وجد[3]:

أنَا الّــذِي نَفْسُـهُ تَشُـوقُهُ لحِتْفِهِ عنْوَة وقَدْ عَلِقَـتْ
أنَا الّذِي فِي الهُمُومِ مُهْجَتُهُ تَصِيحُ مِنْ وَحْشَةٍ وَقَدْ غَرِقَتْ
أنَا حَــزِينٌ مُــعَــذَبٌ قَلِـقٌ [رُوحِي مِن أسْرِ حُبِها] أبْقَتْ
كَيْفَ بَقَائِي وَقَدْ رَمَى كَبِدِي بأسْهُمٍ مِنْ لِحَاظِه رَشِقَتْ

لقد كان "الحلاج" يبحث عن حرية روحه، لذلك كان يضحي بجسده قربانا، وكلما قسي على نفسه أحسّ أنه لم يصل بعد، فكانت كل شطحاته، وعباراته المبهمة والواضحة، والدموع التي تبلل مكان

[1]- الحلاج، الأعمال الكاملة، مذكور سابقا، ص 294.
[2]- الحلاج، ديوان الحلاج ومعه أخبار الحلاج وكتاب الطواسين، مصدر مذكور سابقا، ص 127.
[3] - الحلاج، الأعمال الكاملة، مذكور سابقا، ص 296.

جلوسه، والعرق الذي يظهر عليه، والدم الذي يخرج من أنفه وفمه عبارة عن توقه واشتياقه، وأن ذلك هو الطريق الوحيد الذي تنطلق من خلالها الروح إلى المطلق معبرة بذلك عن الأزلية.

هي إذاً، رؤية صوفية خالصة عاشقة اعتبرت الموت خلاصًا، وراحة لها، ورغم لذة السكر الممزوج بالألم في لحظات الفناء، إلاّ أنها لم تكتفِ، وكانت تطلب المزيد فلم تجد مخرجا، إلا الموت الذي هو انقطاع عن الخلق وفناء في الحق.

لقد اجتمعت الحقائق الروحية، مستجدة في موفق فريد، وشجاع أمام أقوى شيء يتحدى الإنسان في حياته، وهو الموت، فكان هذا الأخير، يحمل معنى جديد ليتحوّل من قوة قاهرة، ومن مصير حتمي، ومن مصدر للخوف والرعب إلى بوابة على البقاء والخلاص الروحي والحياة الحقيقية.

- المصادر والمراجع

1. الحلاج، الأعمال الكاملة، (التفسير، الطواسين، بستان المعرفة، نصوص الولاية، المرويات، الديوان)، تحقيق: قاسم محمد عباس، بيروت لبنان، ط1، 2002.
2. ابن نصر السراج الطوسي، حققه: عبد الحليم محمود، طه عبد الباقي سرور،دار الكتب الحديثة، مصر، د ط، 1960.
3. الجرجاني علي بن محمد، كتاب التعريفات، تعريفات مصطلحات (علوم قرآن – فقه- لغة – فلسفة – تصوف – مكاييل – موازين – مقاييس)، تحقيق: محمد عبد الرحمان المرعشلي، دار النفائس، بيروت، ط1، 2003.
4. أيمن حمدي، قاموس المصطلحات الصوفية – دراسة تراثية مع شرح اصطلاحات أهل الصفاء من كلام خاتم الأولياء، القاهرة، دار قباء، القاهرة، 2000.
5. الشيخ احمد رضا، معجم متن اللغة العربية، موسوعة لغوية حديثة، مجلد5، دار مكتبة الحياة، بيروت، د ط، 1960.
6. إبراهيم محمد تركي، فلسفة الموت عند الصوفية، دار قباء، طبعة جديدة، 1992.
7. الحلاج، ديوان الحلاج ومعه أخبار الحلاج وكتاب الطواسين، وضع حواشيه وعلق عليه محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2002.
8. علي بن أنجب الساعي البغدادي، أخبار الحلاج (من أندر الأصول المخطوطة في سير الحلاج)، تحقيق: موفق فوزي الجبر، دار الطليعة الجديدة، سوريا، ط2، 1997.